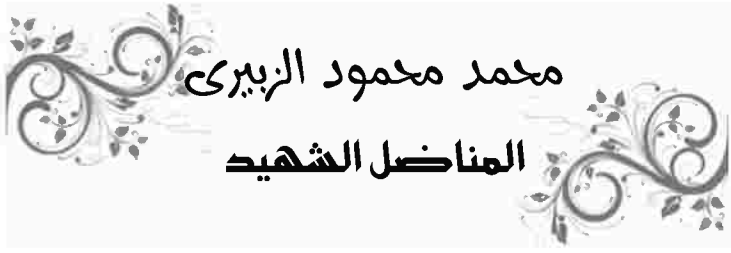


كتب يوماً يقول:

(ومهما يكن الأمر فإن الحقيقة الواقعة أن الشعر هو الذى أخرجنى من القمقم وقادنى إلى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات).

ولقب شاعرنا بألقاب مختلفة منها: أبو الأحرار.. الزعيم الوطنى.. المناضل الشهيد.. المجاهد الأكبر.

أما سيرة حياته.. فقد ولد محمد محمود الزبيرى فى صنعاء عام 1918 من أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى ويشتغل بعض أفرادها بالقضاء والبعض الآخر بالتجارة.

وقد نشأ الزبيرى نشأة دينية.. فقد كان طالب علم ينحو نحو الصوفية.. والروحانية.. وعشق هذا اللون من الحياة الذى يتسم بالشظف وقلة الزاد.. والفقر والتقشف.

ويخرجه الشعر ـ على حد قوله ـ من هذه الدائرة المغلقة إلى دائرة الحياة الواسعة.. وفى ذلك يقول مخاطباً الشعر:

**حملتني آلامها ودموعها**

**ومنعت عنى وصلها ومنعتها**

**ناديت أشتات الجراح بأمتى**

**فجمعتها فى أضلعى وطبعتها**

**مـــا قـــال قومـــى: آه إلا جئتـــى**

**فكويـــت أحـــشائى بهـــا ولـــسعتها**

وبالطبع كانت الطبقة التى ينتمي إليها الشاعر بعيدة عن الثقافة تعيش بمنأى عن إمكانية التغيير.

لكن الزبيرى تخلى عن طبقته وانخرط فى صفوف الشعراء الذين التزموا قضايا المجتمع بعيدا عن الجمود والتخلف.

واصطدم الزبيرى ورفاقه بعصر الإمام يحيي.. فكان بداية معاناته..

وقد عرف الزبيرى السياسة وهو طالب فى كلية دار العلوم بالقاهرة وعاد إلى اليمن حاملاً تلك الأفكار الثورية التى تنادى بالتنوير من خلال جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التى أسسها بعد عودته.. ويقبض على الزبيرى وأعضاء جمعيته.. ويودعون السجن ويلاقون التعذيب.

لكن الزبيرى استطاع أن يفر من صنعاء إلى عدن ـ عاصمة الجزء المحتل من البلاد آنذاك ـ ونجح مع بعض رفاقه فى تكوين أول عمل صحفى للتعريف بأحوال مملكة الإمام يحيي.. ودعوة الشعب إلى الثورة والقضاء على هذا النظام المتخلف.

وتنجح دعوة الزبيرى وفى ذلك يقول:

**كفـــرت بعهـــد الطغـــاة البغـــاة**

**ومـــا زخـــرفوه.. ومـــا زيّفـــوه**

**وأكـــبرت نفـــسى عـــن أن أكـــون**

**عبـــــدا لطاغـــــية توّجـــــوه**

وعـــن أن يرانـــى شـــعبى الـــذى

يعـــذَّب عـــوناً لمـــن عـــذَّبوه

ثم يقول:

سأقـــضى عنيـــداً فـــلا أنثنـــى

وأحيـــا كـــريماً فـــلا أنحـــى

وأرفـــع نحـــو الـــسَّما جبهتـــى

كـــما ارتفعـــت جبهـــةُ المـــؤمنِ

وينتفض الشعب اليمني ويطيح بالإمام يحيي فيكتب الزبيرى:

المـــلايين العطـــاش المـــشرئبة

بـدأت تقتلـع الطـاغى وصـحبه

ســامها الحــرمان دهــرا لا يــرى

الغيـث إلا غيثـه والـسحب سـحبه

هـا هـو الـشعب صـحا مـن خطبـه

بيـنما الطـغيان يـستقبل خطبـه

ويصير الزبيرى وزيرا فى حكومة الانقلاب الأول.. ولأنه كان فى طليعة الثائرين بشعره ومواقفه.. فقد كان فشل الانقلاب يعنى له الإعدام.. لكنـه سلم من ذلك.

ويذهب الزبيرى إلى السعودية ضمن وفد يمني للتباحث مع وفد الجامعة العربية برئاسة عبد الرحمن عزام.. لكن الزبيرى أحس أن السعودية تعمدت تأخير وفد الجامعة فى الأراضي الحجازية حتى يكتمل الحصار من حول الانقلاب الوليد.

وحين يئس الزبيرى من إثناء الملك السعودي عن موقفه قرر هو ورفاقه سرعة العودة إلى صنعاء.. لكنهم فوجئوا بسقوط المدينة فى أيدي البرابرة.. وكان على الزبيرى أن ينجو بنفسه..وهنا تبدأ حياة التشرد والنفي والغربة الطويلة.

اتجه الزبيرى إلى باكستان ومكث هناك خمس سنوات بكى بها مصرع الرفاق.. وبكى وطنه المقهور:

**أضلنى وهم شعرٍ كنت أنسجه**

**سحراً يحوّل قلب الصخر ألحانا**

**وهالنى شؤم ما استكشفت من جثثٍ**

**قد كنت أحسبها من قبل تيجانا**

**فرحت أشعل بالقيثار مقبرة الـ**

**موتى وأنفض أغلالا وأكفانا**

**أصبو إلى أمتى حباً وأبعثها**

**بعثاً وأبنى لها بالشعر بنيانا**

**أصوغ للعمى منه أعيناً نزعت**

**عنهم وأنسجه للصم آذانا**

وما حملت يراعى خالقاً بيدى

إلا ليصنع أجيالاً وأوطانا

يخاله الملك السفاح مقصلةً

فى عنْقه ويراه الشعب نيرانا

فهاك يا أمتى روحاً مدلهة

عصرتها لخطاك الطهر قربانا

كأساً من الشعر لو تسقى الشموس بها

ترنحت ومشى التاريخ سكرانا

وتقوم ثورة 1952 فى مصر.. وتفتح أحضانها للثوار العرب فى كل مكان.. وتستقبل الزبيرى فيمن تستقبلهم.. ليعلن الزبيرى قيام الاتحاد اليمني.

ثم تقوم ثورة 26 سبتمبر ليعود الزبيرى إلى وطنه وزيراً للتربية والتعليم ثم نائباً لرئيس الوزراء.

وكان الزبيرى يكره المناصب.. لهذا وجدناه يهجر مكتبه ليذهب إلى الريف مدافعاً عن منجزات الثورة..

حتى سقط مضرجاً بدمه فى 30 مارس عام 1965.

تلك سيرة حياة مناضل يمنى لم يكف لحظة عن المطالبة بالثورة وإسقاط الرجعية والتخلف.

وكان عندما هاجر إلى عدن قد كتب قصيدته (الخروج من اليمن) يقول فيها:

خرجنـا مـن الـسجن شـم الأنـوف

كـما تخـرج الأسـدُ مـن غابهـا

نمـر عـلى شـفرات الـسّيوف

ونأتـى المنيـة مـن بابهـا

ونأبـى الحـياة إذا دنّـست

بعـسْف الطـغاة وإرهابهـا

ونعلـم أن القـضا واقـعٌ

وأن الأمـور بأسـبابها

سـتعلم أمـتنا أننـا

ركبنـا الخطـوب حنانـا بهـا

فـإن نحـن فزنـا فيـا طالمـا

تـذل الـصعاب لطلابهـا

وإن نلـق حتفـاً فيـا حبـذا

المـنايا تجـئ لخطابهـا

ويقول الزبيرى فى كتابه (ثورة الشعر):

(إن الشعب كله كان يقدس هؤلاء الحكام.. وكان كل من يملك شعراً أو نثراً لا يكاد يقدمه إلا مدحاً للإمام أو نجله.. وليس هناك فرق بيننا وبين الكثيرين إلا أننا تغيرنا ولم يتغيروا.. وثرنا ولم يثوروا.. وقدمنا حياتنا

وشبابنا قربانا فى سبيل الحق.. ومن أجل الشعب مع نفر قليل من زملائنا وشهدائنا).

ثم يرثي شعبه بقوله:

ما كنت أحسب أنى سوف أرثيه

وأن شعرى إلى الدنيا سينعيه

وأننى سوف أبقى بعد نكبته

حيا أمزق روحى فى مراثيه

وكان الزبيرى حين كتب هذه القصيدة مطارداً فى الهند.. محظورا عليه المشى والظهور فى الأماكن العامة.. وهى قصيدة طويلة تسوق لنا ذكريات كثيرة حول الثورة وما قبلها وفيها يقول:

علت بروحى هموم الشعب وارتفعت

بها إلى فوق ما قد كنت أبغيه

وخولتنى الملايين التى قتلت

حقَّ القصاص على الجلاد أمضيه

عندى لشر طغاة الأرض محكمة

شعرى بها شرّ قاضٍ فى تقاضيه

أحارب الظلم مهما كان طابعه

البرَّاق أو كيفما كانت أساميه

ولابد أن الزبيرى فى منفاه وغربته كان يحن إلى وطنه.. ذلك الوطن الذى يناضل من أجله.. والذى يتمنى أن يحترق فى أتونه.. وأن يكون أحد شهدائه..

يتغنى الزبيرى بالحنين إلى وطنه قائلا:

**وطنى أنت نفحة الله ما تبرح**

**لا عن قلبى ولا عن لسانى**

**صنع الله منك طينة قلبى**

**وبرى من شذاك روح بيانى**

**هاك ما قد طهّرته لك من دمـ**

**ـعى وما قد صهرته من جنانى**

**شعلة القلب لو أذيعت لقالوا**

**مرّ عبر الأثير نصلُ يمانى**

ولم يكن الزبيرى مهموماً بوطنه اليمن فحسب.. لكنه كان يعيش حركات النضال العربية فى كل مكان.. وكانت قضية فلسطين تأخذ حيزاً من أشعاره وتفكيره كذلك.

وقد كتب هذه القصيدة تعليقاً على اجتماع الدول العربية فى لندن فى بداية الحرب العالمية الثانية.. وعلى الكتاب الأبيض الذى أصدره الإنجليز آنذاك عن قضية فلسطين.. يقول:

**يا قادة العرب والإسلام قاطبةً**

**قوموا فقد طال بعد الصبح نومكمُ**

شيدوا لنا فى سماوات العلا حرماً

نطوف حول ثرياه ونستلمُ

متى يرى الانكليزيون ذمتنا

كذمة .. حقها تُرعى وتُحترمُ

حتى متى نشتكى منهم ونسألهم

رفع العذاب فما رقّوا ولا رحموا

هم يدركون بأنا خاضعون لهم

من ذُلنا رغم ما جاروا وما ظلموا

لا نستحق حياة غير ما وهبوا

ولا ننال حقوقاً دون ما حكموا

ثم يخاطب إنجلترا بقوله:

أين العدالة يا أعداء مبدئها

منكم إذا كان غمط الحق دابكمُ

إن الخداع الذى دانت سياستكم

به لأعظم ما تشقى به الأممُ

أضحى اليهود صليباً تعبدونهم

دون الصليب وإن كان العبيدهمُ

فــلا بـــرحتم عبيــداً لليهـــود ولا

زالــت سياســتكم بالـــذل تنهــدمُ

ويتملك الزبيرى اليأس فى بعض طموحاته وأحلامه.. فيتأوه حزيناً لا يملك إلا البكاء على عمر مضى:

أنــا آه تطــايرتْ مـــن حطــام الــشـ

ـــعب واســـتكبرتْ علـــى المـستبد

أتقـــى نابـــه ومخـــلبه العـــا

تى بلحمى العارى وصدرى وزنـدى

وبقلـــب مـــكبل فـــى شـــباك

مـــن صـــلال مـــلء الجـــوانح رُبْـــدِ

لا قـــصيدى يزلـــزل الحـــائط البـــا

غـــى ولا زفرتـــى تحطـــم قيـــدى

وتصيب رصاصة الغدر قلب الزبيرى لتكفيه هذا الحزن وذلك الأسى العميق الذى يعمر قلبه وكيانه.. لتطوى صفحة من النفي والتشرد والتمرد على الواقع.